عالم عربي جديد

خالد فهمي*

جلاء الطغاة والتحرر من الاستبداد**

في ٢٥ يناير واجهتُ لأول مرة في حياتي الغاز المسيّل للدموع. كنت قد استجبت لمناشدات عديدة على الـ "فايس بوك"، وشبكات التواصل الاجتماعي الأُخرى، وذهبت إلى ميدان التحرير للانضمام إلى شقيقتي وابنها اللذين كانا موجودين هناك منذ عدة ساعات. وما إن دخلتُ الميدان حتى أدركت أن ما يجري هو حدث عظيم الأهمية، إذ كانت سنة ٢٠٠٣ آخر مرة رأيت فيها حشداً ضخماً كهذا، وذلك عندما امتلأ الميدان بالمتظاهرين ضد الغزو الأميركي للعراق آنذاك. وراح الحشد يكبر ويكبر إلى أن نجحت الشرطة بعد منتصف الليل بقليل في تفريقنا بخراطيم المياه وبزخّات من قنابل الغاز المسيّل للدموع.

وبعد ثلاثة أيام، في اليوم الذي سُمِّي "جمعة الغضب"، وجدت نفسي مع عشرات الآلاف من إخوتي المواطنين المصريين وجهاً لوجه مع شرطة مكافحة الشغب السيئة الصيت التابعة لمبارك، على كوبري [جسر] الجلاء، ثم على كوبري قصر النيل المفضي إلى ميدان التحرير. وجابهتنا قوات الشرطة بخراطيم المياه والرصاص المطاطي والغاز المسيّل للدموع لمنعنا من احتلال الميدان المركزي والأهم في المدينة. ولم تمضِ ساعات قليلة حتى انهارت هذه القوات وصار الطريق إلى ميدان التحرير مفتوحاً ومن دون عائق، وكان ذاك هو اليوم الثامن عشر للاعتصام الذي خلع حسني مبارك من السلطة وأودى بعهده الذي استمر ثلاثين عاماً.

خلال تلك الساعات العصيبة على الكوبري لم يكن لديّ وقت للتفكير فيما كان يجري، إذ كان كل جهدي منصباً على محاولة التمييز بين صوت الرصاص المطاطي والرصاص الحيّ، وعلى بذل أقصى ما لديّ من طاقة لتفادي قنابل الغاز المسيّل للدموع التي كانت تنهال علينا من دون انقطاع.

لكن عندما عدت إلى البيت في ذلك اليوم، اتضح لي أن ما شهدته كان حدثاً تاريخياً. طبعاً، لم أكن أتوقع وقتها أن نظام مبارك البائد سينهار بعد أسبوعين، وأن الشعب المصري سيتمكن من رسم مستقبله بنفسه، ومع ذلك لا يسعني إلاّ أن أعود إلى أحداث ذلك اليوم المصيري، والتأمل في المفارقات التي ينطوي عليها تاريخ ٢٥ يناير، وفي مسميات الكوبري والميدان المجاور.

٢٥ يناير أعار الآن اسمه إلى ثورة سنة ٢٠١١ التي شهدت سقوط أحد أطول الطغاة

(*) أكاديمي ومؤرخ مصري.
(**) **ترجمة**: أحمد خليفة.

العرب استمراراً في الحكم. قبل الثورة، كان ٢٥ يناير يُسمّى "يوم الشرطة"، إحياءً لذكرى حصار الجيش البريطاني في سنة ١٩٥٢ مركزاً للشرطة المصرية في مدينة الإسماعيلية الواقعة على حافة السويس، وكيف تطور الحصار بسرعة إلى مواجهة دامية انتهت باستشهاد أكثر من ٥٠ رجل شرطة. وعندما وصلت أخبار المذبحة إلى القاهرة في اليوم التالي، اشتعلت القاهرة غضباً، وهوجم كثير من رجال الأعمال البريطانيين والأوروبيين، وبعد ستة أشهر، قام الضباط الأحرار بالانقلاب الذي أطاح بالملك فاروق، وأسّس النظام الجمهوري. وكان بين المبادرات الرمزية العديدة التي أقدم عليها النظام الجديد إعلان ٢٥ يناير يوم عطلة رسمية تكريماً للموقف البطولي الذي اتخذته الشرطة المصرية ضد المحتل الأجنبي.

لكن بعد ٥٩ سنة فقدت الشرطة المصرية تماماً كل ما كانت تستحق التكريم من أجله. وبدلاً من دورها السابق، أصبحت الأداة الرئيسية بيد مبارك لتشديد قبضته على المجتمع، وخنق حرية التعبير، واتهام الشخصيات المعارضة (وخصوصاً الإسلاميين) وتعذيبهم، وقمع المعارضة السياسية وخنقها في المهد قبل أن تشكل أي تحدّ جدّي للنظام. وهكذا، صار رجال الشرطة المصرية وكلاء القمع الرئيسيين، وتحولت مراكزهم إلى زنزانات يُمارَس فيها التعذيب المنهجي. ومن هنا، لم يكن من قبيل المصادفة أن يتصدر إحدى صفحات الـ "فايس بوك" الرئيسية التي دعت الناس إلى النزول إلى الشارع في "يوم الشرطة"، العنوان: "كلنا خالد سعيد"، على اسم الشاب الإسكندراني الذي لقي حتفه على أيدي رجال أمن بملابس مدنية ضربوه حتى الموت في الصيف الفائت.

لم تكن المعاني الضمنية الجديدة لـ ٢٥ يناير هي المفارقة الوحيدة التي خطرت ببالي لدى التأمل في الأحداث المصيرية التي حفلت بها الثورة المصرية. فكوبري الجلاء ينطوي على معنى ضمني آخر. لقد سُمّي في الأصل "كوبري الإنجليز"، واكتسب اسمه الجديد، "الجلاء"، في أعقاب رحيل آخر جندي بريطاني عن تراب مصر في سنة ١٩٥٤، منهياً بذلك احتلالاً دام ٧٢ عاماً. ومع ذلك، وعلى هذا الكوبري بالذات، وجدتُ نفسي أواجه، لا قوة احتلال أجنبية، وإنما رجال شرطة مصريين كان من المفروض أن يحموني ويحموا زملائي المواطنين.

وحتى اسم ميدان التحرير، الذي اكتسب الآن شهرة عالمية، ليس خالياً من المفارقة. فقد سُمّي هذا الميدان في الأصل "ميدان الإسماعيلية" على اسم الخديوي إسماعيل الذي يعزى إليه الفضل في وضع تصميم القاهرة الحديثة، وقد أعاد نظام الضباط الأحرار في سنة ١٩٥٥ تسميته، إحياء لذكرى انسحاب القوات البريطانية في السنة السابقة، وكي يكون الاسم مؤشراً إلى تعهد النظام الثوري بمساندة الكفاح العربي الأشمل ضد الاستعمار الممتد من الجزائر إلى فلسطين. لكن هذا النظام نفسه، وبدلاً من أن يحرر فلسطين كما وعد في سنة ١٩٦٧، انتهى به الأمر إلى خسارة شبه جزيرة سيناء (وأكثر من ذلك كثيراً) في هزيمة كارثية ندر أن شهدنا مثيلاً لها في التاريخ الحديث. وأبعد من ذلك، شعر المصريون، في عهدَي السادات ومبارك، بأنهم أبعد ما يكونون عن المثل العليا التي يتضمنها اسم الميدان، وأنهم مهانون ومضطهدون ومحاصرون في وطنهم.

لقد وضعت ثورة ٢٥ يناير حداً لهذه الحالة التعيسة. إن هذه الثورة هي عكس واضح لتوجه تاريخي صاغ تاريخ مصر على امتداد أعوام عديدة من القرن العشرين. ومهما تكن المكاسب الاقتصادية التي حققها المصريون خلال الأعوام الستين الأخيرة (وهي لم تكن عظيمة)، ومهما تكن الإنجازات التي حققتها الدولة

المصرية في مجال السياسة الخارجية (ومرة أُخرى، كانت قليلة وحدثت على فترات متباعدة)، فإن ذلك تم بتكلفة مريعة. فخلال عشرات السنين، انتُهكت الحقوق الإنسانية لأغلبية المصريين، وأُلغيت حرياتهم، وأُخرست ألسنتهم، وعُذِّبت أجسادهم.

إن الانتفاضات التي تتفجر في كثير من الأقطار العربية ـ في ليبيا واليمن، في الأردن والبحرين ـ مثلها مثل ثورتَي مصر وتونس، هي جميعاً جزء من كفاح الشعوب العربية لاسترداد الكرامة التي حُرمت منها طوال عقود من الزمن. ومنذ انهيار الإمبراطورية العثمانية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وما تبع ذلك من رسم خريطة المنطقة كما نعرفها، رأينا أنظمة حكم متعددة تفشل مرة تلو المرة، وبصورة منهجية، في تلبية أماني شعوبها ورغباتها. وفي بلد بعد بلد، وعقد من الزمن بعد عقد، رأت الشعوب العربية حرياتها، وحقوقها الأساسية، وكرامتها، تُنتهك، ويتم حرمانها منها على أيدي حكوماتها. وعندما كانت الشعوب تحاول أن تثور ضد طغاتها المحليين، كانت تقف في طريقها نحو الحرية والكرامة قوتان رئيسيتان: إسرائيل والنفط. فعلاوة على الشقاء الذي تسبّبتا به لملايين الفلسطينيين، فإن المشروع الصهيوني أيضاً، استنزف الطاقات الخلاقة للمنطقة بأسرها، وجرّها إلى مستنقع حروب متكررة ـ حروب استغلها الطغاة المحليون لخنق الحريات. ومنح ظهور النفط بهذه الكميات الهائلة الطغاة المحليين مجالاً رحباً للتنفس، وسمح لهم بتأجيل الإصلاحات السياسية التي كان هناك حاجة ماسة إليها.

إن الثورة المصرية ما زالت فتيّة، و"الربيع العربي" لا يزال في أيامه الأولى، والطريق أمامهما وعرة والوصول إلى الديموقراطية سيكون صعباً. وكما نرى في ليبيا واليمن، فإن الطغاة المحليين ليسوا مستعدين للرحيل من دون قتال وحشي. ولن تتورع قوى الثورة المضادة عن فعل أي شيء كي تحافظ على الوضع القائم وتوقف هذا التوجه الثوري ـ انظر الدعم العسكري السعودي لملك البحرين المحاصر. وأولاً وقبل أي شيء، لن تكون الولايات المتحدة وإسرائيل سعيدتين لرؤية انهيار الطغاة المحليين العرب ـ أدواتهما الرئيسية لتدعيم سيطرتهما على المنطقة.

ومع ذلك، فإن السير نحو الكرامة واحترام الذات الذي بدأته الشعوب العربية غير قابل للعكس. والثورة المصرية، كما الثورة التونسية التي ألهمتها وتلهم الآن الانتفاضات العربية العديدة، لهي جميعاً دليل على أننا نشهد يقظة عربية جديدة. وعندما نزل ملايين المصريين إلى الشارع في ٢٥ يناير فإنهم كانوا أساساً يثورون ضد حرمانهم من الحرية، وضد الانتهاك المنهجي لحقوقهم الإنسانية، وضد التعذيب الواسع النطاق الممارس في بلدهم. إن "التحرير" الذي يصبون إليه، هم وملايين العرب الآخرون، ليس تحرراً من احتلال أجنبي، وإنما من استبداد محلي، و"الجلاء" الذي يعملون من أجل تحقيقه ليس انسحاب جيوش أجنبية، وإنما رحيل طغاتهم المحليين.

وبالتالي، فإن الربيع العربي في سنة ٢٠١١ هو حركة غير مسبوقة للشعوب العربية بحثاً عن العدالة والكرامة. والقوة الأخلاقية التي ترشدهم في كفاحهم لا يمكن أن تفشل في مساعدتهم على التخلص من الاستبداد والقمع، كما أن الروح الخلاقة والموهبة اللتين أبداهما الشباب في هذه الانتفاضات مؤشران واضحان إلى أن الشعوب العربية استعادت احترامها لذاتها، وأعادت اكتشاف ماذا يعني أن تكتب تاريخها بنفسها، وأن ترسم مصيرها بقلمها. ■